المبحث الرابع
أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى

نجحت الحملة الصليبية إلى حد كبير في تثبيت وتأسيس أربع إمارات لاتينية: الأولى في أعالي الفرات وهي الرها، والثانية في أعالي الشام وهي أنطاكية، والثالثة على الساحل الشامي وهي طرابلس، أما الرابعة، فكانت في قلب فلسطين وهي بيت المقدس [1]، إضافة إلى أربع بارونيات كبرى هي: صيدا ويافا وعسقلان والجليل، واثنى عشر إقطاعاً تسلمها أصحابها من الملك الصليبي مقابل تقديم فروض الولاء والطاعة له وتتمثل في: أرسوف، حبرون، الداروم، قيسرية، نابلس، بيسان حيفا، تبنين بانياس، كيفا، اللد، وبيروت [2] وجدير بالذكر أن هذا النجاح الذي حققه يرجع إلى عدة عوامل وأسباب ساهمت فيه منها:

أولاً: انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي:

بدأ الضعف يتسرب إلى جسم الدولة العباسية المترامية الأطراف في العقود الأخيرة من القرن الثاني للهجرة، الثامن الميلادي، عندما بدأت بعض الولايات البعيدة عن مركز الدولة في بغداد، تنفصل مكوّنة دولاً مستقلة وتعجز الخلافة عن إعادتها للسيطرة المركزية، فقد تأسست دولة الأدارسة في أقصى المغرب عام 172هـ - 788م [3]، كما تأسست دولة الأغالب في تونس 184هـ - 800م، ثم قامت الدولة الفاطمية على أنقاض دولة الأغالبة في تونس عام 297هـ/909م، وفي مصر قامت الدولة الطولونية عام 254هـ/868م، أعقبتها الدولة الإخشدية عام 323هـ/935م وفي عام 358هـ/969م استولى الفاطميون على مصر وجعلوا القاهرة عاصمة دولتهم، وهكذا خرج المغرب الإسلامي ومصر بشكل تدريجي من حيث الزمان والمكان عن نطاق الدولة العباسية، وظهرت خلافة جديدة تسيطر على النصف الغربي من العالم الإسلامي وتسعى للسيطرة على النصف الشرقي الذي أصابه ما أصاب النصف الأول من حيث قيام الدول المستقلة، فقد قامت الدولة الطاهرية في خراسان عام 205هـ/820م وتبعتها الدولة الصفارية عام 254هـ/867م، ثم غلبت على المنطقة السامانية التي تأسست عام 204هـ/819م في بلاد ما وراء النهر، ثم امتد نفوذها لتشمل جميع البلاد التي كانت تتبع للدولة الصفارية، وكان نفوذ الخلافة العباسية تتحول من سلطة سياسية إدارية روحية إلى سلطة روحية فقط، ولم يبق للخليفة سوى ذكر اسمه في خطب الجمعة متبوعاً باسم السلطان الغالب على البلاد، ويعود السبب الرئيسي في ضعف الخلافة العباسية وتلاشي سلطتها [4]، إلى أسباب كثيرة ليس هنا مجال بحثها، وقد تمكن الأتراك في عهد المعتصم (218 - 227هـ) وكانت لهم حظوة في عهده وقربهم وأسند لهم المناصب العليا في مركز الدولة والولايات واعتمد عليهم في حراسة قصره، حتى تطاولوا على الناس وكثرت شكاوي الناس من ظلمهم في بغداد، فبنى لهم

(1) دور الفقهاء ووالعلماء في الشرق الأدنى ص 37.
(2) المصدر نفسه ص 37.
(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة 24.
(4) المصدر نفسه ص 25.

المعتصم مدينة سامراء وجعلها عاصمة لهم ومن حولـه حاشيته من الأتراك، فزاد نفوذهم وصاروا وحدهم المتسلطين على أمور الخلافة والدولة حتى صاروا هم الذين ينتخبون الخليفة الذين يريدون ويعزلون من لا يوافق رغباتهم وأهواءهم.

وفـي عـام 334هـ/945م استولى البويهيـون الشـيعة علـى العـراق وأضـافوه إلـى دولـتهم التـي تأسست قبل ذلك في فارس وصاروا هم المتسلطين على شؤون الخلافة وتعسفوا في معاملة الخليفة حتى إنهم عذبوا بعض الخلفاء وسجنوا بعضهم وقتلوا البعض الآخر، وكان بإمكانهم إنهاء الخلافة العباسية والدعوة للخلافة الفاطمية في العراق وباقي المشرق الإسلامي، خاصة بعد استيلاء الفاطميين على مصر، لكنهم لم يفعلوا ذلك، ليس حفاظاً على الخلافة العباسية، بل حفاظاً على سلطانهم ودولتهم من أن تزول لصالح الفاطميين، الذين تمكنوا من بسط سيطرتهم على بلاد الشام وشبه جزيرة العرب، وأخذوا يبثون دعاتهم في العراق لإنهاء الخلافة العباسية وضم باقي المشرق الإسلامي لدولتهم، وفي عام 447هـ/1055م استغل أحد دعاتهم ضعف سلطة البويهيين وأثار فتنة في بغداد تمكن خلالها مع مؤيديه من إلقاء القبض على الخليفة وحبسه، فاستنجد الخليفة بالسلطان طغرل بك سلطان السلاجقة الذين كانوا قد أسسوا دولتهم عام 427هـ/1037م في بعض مناطق خراسان، ثم توسعوا جنوبا وغرباً في أراضي الدولة البويهية التي كانت قد ضعفت كما تقدم وسارع سلطان السلاجقة إلى استغلال الفرصة فتوجه إلى العراق وقضى على الفتنة، وعلى الدولة البويهية وأعاد للخليفة اعتباره، ولكن البساسيري الذي تأثر بدعوة الفاطميين استولى على بغداد بعد أن غادرها طغرل بك 450هـ/1058م، وأقام الدعوة فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، إلا أن طغرل بك عاد إلى بغداد من جديد وقضى على داعية الفاطميين واستقرت الأوضاع في العراق لصالح دولة السلاجقة السنيين، الذين أظهروا قدراً كبيراً من الاحترام للخليفة، ولكنهم أبقوه رمزاً دينياً بدون قوة وصلاحيات، وعندما اجتاح الصليبيون بلاد الشام عام 492هـ/1099م كانت الخلافة العباسية عاجزة تماماً عن القيام بأي رد فعل سوى توجيه الرسل إلى سلاطين السلاجقة لمعالجة الأمر [1].

ثانياً: الصراع على السلطنة في داخل البيت السلجوقي:

خلف السلطان ألب أرسلان السلجوقي عند وفاته سنة 465هـ/1072م دولة متحدة الأركان قوية الجانب يحكمها ولداه السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان الأكبر في المشرق والعراق وتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان الأصغر في بلاد الشام كتابع لأخيه الأكبر. واستمر هذا الاستقرار زمن السلطان ملكشاه (465هـ - 485هـ/1072 - 1092م لاتباعه سياسة والده ووزيره نظام الملك الذي توفي سنة 485هـ/1092م ثم تبعه ملكشاه ووزيره في السنة المذكورة قد أدت إلى خلق فراغاً سياسياً في صفوف العالم الإسلامي عامة والسلاجقة خاصة وكانت سبباً حقيقياً في تفكيك وحدة السلاجقة الذين أصبحوا ثلاث قوى تتصارع فيما بينها، قوة السلاجقة بزعامة قلج أرسلان الأول في آسيا الصغرى، وقوة سلاجقة الشام بزعامة تاج الدولة تتش، وقوة سلاجقة فارس والعراق بزعامة

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 27.

السلطان بركياروق بن ملكشاه ومن ينازعه من إخوته [1]، وقد تحدثت بنوع من التفصيل ما جرى من الحوادث بين السلاجقة عامة بعد وفاة السلطان ملكشاه، علماً بأن النزاعات والحروب لم تقتصر على سلاطين وأمراء السلاجقة بل اشترك فيها أمراء بني مزيد في العراق والخليفة العباسي المسترشد (512 - 529هـ).

وقد أدى هذا الصراع إلى استنزاف إمكانيات دولة السلاجقة وانشغال سلاطينها وولاتها عن الخطر الفرنجي الداهم إلا من بعض الجهود الثانوية التي تم توجيهها لمقاومة الفرنجة تحت ضغط الرأي العام الإسلامي الذي أخذ يتبلور على أيدي بعض رجال الدين من العلماء والقضاة الذين كان لهم الفضل الأكبر بعد الله في يقظة الأمة وإعادتها إلى جادة الصواب، وإثارة الهمم لمقاومة العدوان الفرنجي، وبعد أن تطور الرأي العام في المشرق الإسلامي وخاصة في بغداد إلى غضب وانتفاضة شعبية اضطر السلطان محمدًا لتوجيه والي الموصل الأمير مودود بن التونتكين لجهاد الفرنجة ومن بعده قام بعض ولاة الموصل والجزيرة بجهود طيبة للحد من توسع الفرنجة في بلاد الشام والجزيرة، لكنها كانت جهوداً فردية غير منتظمة، ولم تلق من سلاطين السلاجقة الاهتمام والدعم المطلوبين، الأمر الذي مكن الفرنجة من الاستيلاء على أغلب بلاد الشام بالإضافة لمنطقة الرها في الجزيرة وظل الوضع على هذا الحال حتى تأسست الدولة " الزنكية " بالموصل عام 521هـ/1127م على يد عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود زنكي عندها انتظم أمر الجهاد ضد الفرنجة [2] واستمرت الحلقات المباركة في عهد نور الدين وصلاح الدين ودولة المماليك.

ثالثاً: الدولة الفاطمية:

الفاطميون لا صلة لهم ببيت النبوة، والدولة الفاطمية هي دولة باطنية، وهذا رأي أكثر علماء الأمة الذين حققوا نسبهم وعلموا بواطنهم وأسرارهم وقد سأل الشريف ابن طباطبا ملكهم المعز العبيدي الذي فتح مصر عن نسبة فسلّ سيفه، وقال: هذا نسبي، ونثر الذهب، وقال: هذا حسبي [3]، فهم أولاد ميمون القداح بن ديصان اليهودي، قال أبو سامة عن عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية: كان زنديقاً خبيثاً عدواً للإسلام، متظاهراً بالتشيع، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة [4] قال الذهبي: وقد أجمع علماء المغرب على محاربة آل عبيد، لما شهدوه من الكفر الصراح الذي لا حيلة فيه، وقد رأيت في ذلك تواريخ عدة لصدق بعضها بعضاً، وخرج كثير من العلماء والعباد مع أبي يزيد الخارجي لقتال القائم بن عبيد الله وقالوا: نكون مع أهل القبلة ضد من ليس من أهل القبلة [5]، وخرَّب الفاطميون القيروان سنة 449هـ،

(1) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 35.
(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 34.
(3) وفيات الأعيان (80/2).
(4) الروضتين في أخبار الدولتين ص 201.
(5) السير (154/15).

وجلا علماؤها إلى الأقطار ومات منهم كثير [1]. وصلتهم بالقرامطة الملاحدة صلة أكيدة ودعوتهم دعوة واحدة [2]، يقول ابن خلكان: كان العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة، وإذا رأى سنّياً استحل دمه [3].

قال الإمام الشاطبي: أما الدّجالون فمنهم معد من العبيدية الذين ملكوا إفريقية، فقد حكى عنه أنه جعل المؤذن يقول: أشهد أن معداً رسول الله، فهمّ المسلمون بقتله " أي المؤذن " ثم رفعوه إلى معد ليروا هل هذا عن أمره، فلما انتهى كلامه إليه قال: أردد عليهم أذانهم لعنهم الله [4]، وكل الإرهاب الذي زرعه الحشاشون في العالم الإسلامي، إنما هو ثمرة من ثمار الدعوة الإسماعيلية العبيدية في مصر، وحسن الصباح زعيم قعلة الموت الذي أرسل رجاله يقتلون العلماء والأمراء المجاهدين إنما تلقى الدعوة على أيدي أصحابها في مصر، والدروز في بلاد الشام من آثار دعوة الدولة العبيدية، وهم يؤلّهون الحاكم العبيدي، وعلاقتهم بإسرائيل علاقة جيدة [5].

وفي عهد المستعلي والآمر: تولى الوزارة الأفضل بن بدر الجمالي وفي عهده تولى يهودي شؤون قصر أما الخليفة فاشتد نفوذه وأسند مناصب الدولة لليهود، والأفضل هذا كان في أيامه نكبة القدس[6] فعندما وصلته أخبار الزحف الفرنجي من آسيا الصغرى باتجاه بلاد الشام وانشغال السلاجقة بمواجهتهم في منطقتي أنطاكية والجزيرة والرها اعتبر الأفضل أن الفرصة سانحة لاستعادة المناطقة الداخلية من بلاد الشام فأرسل وفداً إلى قادة الحملة الفرنجية وهم يحاصرون أنطاكية ليتفق معهم على اقتسام بلاد الشام بحيث يكون شمالها للفرنجة وجنوبها للفاطميين، واستقبل قادة الحملة الفرنجية الوفد الفاطمي بالترحيب وأظهروا الرغبة في التعاون مع الفاطميين ولكنهم لم يفصحوا عن حقيقة نواياهم حول القدس ولم يحصل الوفد الفاطمي منهم على جواب واضح [7] إلا أن الأفضل بدأ بتنفيذ خطته التي كان محورها استعادة القدس ودمشق مستغلاً انشغال السلاجقة بالمواجهة مع الفرنجة فسار بجشيه إلى فلسطين وحاصر القدس في الوقت الذي كان الفرنجة يحاصرون أنطاكية، وبعد قتال شديد على الأسوار، وفي المدينة استولى الفاطميون على القدس في شعبان 491هـ/1098م أرسل الأفضل وفداً آخر إلى قادة الحملة الفرنجية بعد أن توغلوا جنوباً باتجاه القدس يعرض عليهم ما سبق عرضه الوفد الأول بالإضافة إلى السماح لهم بالحج إلى القدس بكل حرية بشرط أن يكونوا بدون سلاح، ولكن الفرنجة كانوا في هذه المرة واضحين في ردهم الذي كان سندخل القدس بسلاحنا دون إذن من خليفة القاهرة [8]، وهذا ما تّم. ووصف الذهبي عموم جيوشهم

(1) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (165/2).
(2) واقدساه (260/1).
(3) وفيات الأعيان (110/3).
(4) الاعتصام للشاطبي (97/21).
(5) واقدساه (260/1).
(6) المصدر نفسه (262/1).
(7) المصدر نفسه (262/1).
(8) المصدر نفسه ص 36.

بأنهم أهل شر وزعارة لاسيما من تزندق منهم وقد ذاق المسلمون منهم من القتل والنهب والسبي حتى أن أهل صور استنجدوا بالنصارى الروم من ظلمهم وجورهم وأخذهم النساء من الحمامات والطرق [1]. وقد وصف ابن كثير ملوك الدولة العبيدية: بأنهم من أنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، وقد ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد، وقلَّ عندهم الصالحون من العلماء، وكثر بأرض الشام.. الدرزية والحشيشية، وتغلّب الفرنج على الساحل [2]. فهؤلاء ما دافعوا عن القدس لما حاصرها الصليبيون مقاومة تذكر[3]. قال ابن خلكان معلقاً: ولو كانت في يد الأرتقية " أمراء الشام من الأتراك " لكان أصلح للمسلمين [4] ولو لم يكن لهؤلاء الباطنية إلا قتلهم للصالحين لكفى.. وقبل احتلال الصليبيين للقدس، قتل الباطنية عام 485هـ الوزير نظام الملك، وفي التاريخ عظة وعبرة: أنه ما ضعف المسلمون إلا في عهود دول البدع والزنادقة، وكل هوان وذل حلّ بديار المسلمين إنما هو من آثار البعد عن دين الله عز وجل، وتفشي البدع والواقع خير شاهد [5].

رابعاً: سقوط الخلافة الأموية بالأندلس:

ففي سنة 422هـ سقطت الخلافة الأموية في الأندلس ودخلت البلاد في فترة جديدة عرفت بعصر ملوك الطوائف امتدت من 422هـ إلى 484هـ وتسمية هذا العصر كفيلة للدلالة على ما وصلت إليه الدولة من تخاذل وتفرق واضطراب وتناحر، حتى أنه حكم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري نحو عشرين أسرة مستقلة في عشرين مدينة أو مقاطعة ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف ومن أشهرهم بنو عباد بإشبيلية وبنو حمود الأدراسة بمالقة والجزيرة، وبنو زيري بغرناطة وبنو هود بسرقسطة، وكان أقواهم بني ذي النون الذين ملكوا طليطلة وحكموا بلنسية ومرسية والمرية[6]، وكان هؤلاء الملوك يدفعون الأتاوات لملك أسبانيا المسيحي الذي استطاع أن ينتزع من أيديهم كثيراً من المدن والمقاطعات لذلك استنجد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين بمراكش، ولم تحل سنة 495هـ حتى استطاع يوسف بن تاشفين أن يضم الأندلس لدولة المرابطين. وقد فصلت ذلك في كتابي عن دولة المرابطين.

وحينما قامت الدعوة للحروب الصليبية في مؤتمر كليرمونت سنة 1095م كانت الحرب على أشدها بين المسيحيين والمسلمين في شبه جزيرة أيبيريا [7]، وأصبح ميزان القوى متأرجحاً بين الفريقين دون أن يتمكن أحدهما من إحراز نصر حاسم على الآخر؛ ولهذه الأسباب لم تكن أسبانيا في حالة تسمح لها بالاشتراك الفعلي في حروب خارج أراضيها سواء من جانب المسلمين أو المسيحيين، فقد كانت أسبانيا مسرحاً لحرب صليبية غربية أو بمعنى آخر حركة استرداد قام بها

(1) سير أعلام النبلاء (468/16).
(2) البداية والنهاية نقلاً عن واقدساه ص 262.
(3) واقدساه ص 262.
(4) وفيات الأعيان (179/1).
(5) واقدساه ص 263.
(6) الحروب الصليبية المقدمات السياسية ص 282.
(7) الحروب الصليبية المقدمات السياسية ص 283.

المسيحيون الغربيون ضد مسلمي أسبانيا، وحينما استولى الصليبيون على بيت المقدس، أعلن البابا " باسكال الثاني " الحرب الصليبية في أسبانيا ضد المسلمين؛ لذلك بدأ الأسبان المسيحيون يشهرون الحرب الصليبية في أسبانيا ذاتها وحاصروا سرقسطة لمدة قصيرة سنة 494هـ ولكن الفرصة لم تكن سانحة لتحقيق هذا المشروع لأن المرابطين استعادوا بلنسية بعد ذلك بقليل، ومن ثم اضطر النصارى إلى فك الحصار [1]، وهكذا لم يكن مسلمو أسبانيا في حالة تسمح لهم بأن يرسلوا أي نجدة ضد الصليبيين في الشرق ذلك لأنهم كانوا مشغولين بالصراع ضد مسيحي أسبانيا، هذا إلى جانب النزاع فيما بينهم [2].

خامساً: دور النصارى الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام:

كان المسيحيون يشكلون عنصراً مهماً من العناصر السكانية في بلاد الشام، وكانوا ينقسمون في بلاد الشام إلى عناصر مختلفة فمنهم المسيحيون السوريون، والأرمن واليونان؛ أما المسيحيون السوريون فقد قاموا بدور ملحوظ بالنسبة للحملة الصليبية الأولى، فقد تعاونوا مع الصليبيين في انتزاع بيت المقدس من المسلمين ولتوضيح موقف مسيحي الشام من الحملة الصليبية الأولى تذكر أنه كان لمساعدة مسيحي ارتاح أثر كبير في استيلاء الفرنج عليها سنة 490هـ/ 1097م، حيث قام سكان البلد المسيحيون بذبح الحامية الموجودة في أرتاح [3]وعندما اقترب الصليبيون من أنطاكية لم يجدوا صعوبة في التماس الأصدقاء في داخل المدينة ذلك أنه انضم إلى المعسكر الصليبي عدد كبير من المسيحيين من سكان أنطاكية الذين دأبوا على الاتصال بأقاربهم في داخل المدينة من خلال باب القديس جورج في الغرب، فتيسر للصليبيين الوقوف على ما يحدث داخل أنطاكية [4].

وقد قاسى الصليبيون من المجاعة التي لحقت بهم أثناء حصار أنطاكية حتى أنه كان يموت شخص من بين كل سبعة أشخاص؛ ولذلك سارع النصارى والأرمن بتقديم كل ما استطاعوا جمعه إلى المعسكر الصليبي [5]، وكان للنصارى أيضاً دور ملحوظ في استيلاء الفرنج على معرة النعمان 491هـ، 1098م وعندما اشتد الجوع والعطش بالصليبيين المحاصرين لبيت المقدس سنة 492هـ قام النصارى بدور المرشدين إلى مناطق الغابات والينابيع، كما أنهم ساعدوا صنجيل الفرنجي في حصار طرابلس سنة 495هـ [6]، وأما الأرمن فيتضح موقفهم عندما وصل الصليبيون إلى منطقة أرمينية في جبال طوروس فقد مد لهم سكانها من الأرمن المسيحيين يد المساعدة وأحسنوا استقبالهم ومعاملتهم وزودوهم بكل ما كانوا يحتاجون إليه من مؤن وأقوات ولولا ذلك لأخفق الفرنج في مواصلة الزحف ولألحق بهم السلاجقة هزيمة منكرة، ولكن هذه المساعدات التي تلقوها من الأرمن هيأت لهم الجو

(1) المصدر نفسه ص 284.
(2) الحروب الصليبية المقدمات السياسية ص 284.
(3) المصدر نفسه ص 284.
(4) الشرق الأوسط والحروب الصليبية للعريني (237/1).
(5) الحروب الصليبية المقدمات السياسية ص 269.
(6) الكامل في التاريخ (446/8).

لمواصلة العدوان المسلح والتوغل في الشرق الإسلامي [1].

سادساً: موقف بعض الإمارات العربية من الغزو الصليبي:

عندما توجه الصليبيون نحو بيت المقدس بعد احتلال أنطاكية، وجعلوا طريقهم على الساحل، بدأت الاتصالات بينهم وبين أمراء المدن الشامية، الذين رأوا في زوال قوة السلاجقة فرصتهم للاستقلال ببعض المدن مثل حمص، وطرابلس وشيزر، تاركين المصلحة العامة للإسلام والمسلمين خلف ظهورهم، وقد قبل هؤلاء أن يدخلوا في طاعة الصليبيين، والنزول على شروطهم وتقديم المعونة والإدلاء لهم [2]. وقد فرح بنو منقذ أصحاب شيزر، وبنو عمار أصحاب طرابلس وهم من البيوتات العربية العريقة بهزيمة السلاجقة، وأقبلوا يمدون المعونة للغزاة من الصليبيين [3]، ومن الوقائع الغريبة والمواقف المريبة أن الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر، أجرى اتصالات مع ريموند عندما كان الأخير في كفر طاب، وتعهد له بألا يعترض طريق الصليبيين عند اختراقهم إقليم شيزر، وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه من غذاء فضلاً عن أنه أرسل دليلين في 17 يناير، ليرشدا الصليبيين في عبور إقليم نهر العاصي، وقد تم فعلاً تنفيذ تلك الاتفاقية [4]، وعندما وصلت طلائع الغزو الصليبي مدينة مصياف خرج إليهم أميرها، وعقد معهم اتفاقية اتجه بعدها نحو سهل البقاع، وسروا بما وجدوه فيه من خيرات، ثم توجهوا نحو حصن الأكراد وحاصروه حتى سقط في أيديهم في 29 يناير 1099م [5]، ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين: ساروا إلى حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة [6]، وهكذا كان أمراء المدن الشامية متفككى الكلمة في ذلك الوقت وكل منهم يحاول فقط أن يحتفظ بإمارته دون النظر إلى الهدف العام وهو الوقوف في وجه العدو الغاشم، ولما كان كل واحد منهم لايستطيع بمفرده أن يقف في وجه الصليبيين؛ لذلك نجد أن معظمهم أخذ الأمان له ولسكان امارته في مقابل بعض المساعدات للصليبيين، وهذا يدل على تغلل أسباب الضعف المعنوي في نفوس أولئك الأمراء والتي منها:

- ضعف الوازع الديني عند كثير من الأمراء.
- الأنانية وحب الذات.
- الجبن والخور الذي أصاب كثيراً من الناس.
- الحرص على المصالح الدنيوية.
- ضعف عقيدة الولاء والبراء.

سابعاً: دور الباطنية الإسماعيلية الرافضة في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين:

(1) الحروب الصليبية المقدمات السياسية ص 270.
(2) جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص 107، 108.
(3) نور الدين محمود: حسين مؤنس ص 85.
(4) الحركة الصليبية (179/1) د. سعيد عاشور.
(5) الحركة الصليبية (108/1).
(6) الكامل في التاريخ (401/5).

شهدت بلاد الشام ظهور فرقة الإسماعيلية أو الباطنية التي أدت إلى زيادة تفكك القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ويمكن القول أن توصيد الإسماعيلية الباطنية بحلب واتساع نفوذهم في بلاد الشام قد أدى إلى ظهور عامل جديد من عوامل تفكك وحدة المسلمين عامة والسلاجقة خاصة ذلك التفكك الذي تعرضت له بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية الأمر الذي أدى بهذه الفرقة إلى مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على بعض معاقل المسلمين، أو تهيئة المناخ المناسب لسقوطها بيد الصليبين، كما حدث في أفاميه سنة 500هـ/11074م [1]، وقد لعبت هذه الفرقة دوراً خبيثاً شريراً في عرقلة الجهاد في مرحلة الصراع مع الغزاة، إذ كانت خناجر غادرة تطعن قادة الأمة، من فقهاء ووزراء، وكان تاريخها صفحات سوداء ملطخة بدماء الأبرياء من أهل السنة [2].

1 - تعاونهم مع الصليبيين: كان أول ظهور للحشاشين في بلاد الشام عام 498هـ عندما أرسل الحسن بن الصباح داعيتهم: الحكيم المنجم، الذي تمكن من إفساد ما بين الأخوين دقاق حاكم دمشق، ورضوان صاحب حلب، ثم تحالف مع رضوان، واستماله إلى نحلتهم، وأقام داراً للدعوة الإسماعيلية في حلب وبعد هلاك رضوان فتك خلفه ألب أرسلان الأخرس بالباطنية وقتل مقدمهم " أبا طاهر الصائغ " وقتل أعيانهم وحبس الباقين، وهرب آخرون منهم قاصدين بلاد الإفرنج وتفرقوا في البلاد[3]، واشتد نفوذهم في حلب ثانية أيام داعيتهم " بهرام " وعظم أمره، وهو في غاية التستر، وأخذ يدعو أوباش الناس، فتبعه الجهال وسفهاء العوام، وانتقل إلى دمشق، ودعا إلى مذهبهم، وأظهر شخصيته، وأعانه على ذلك وزير طغتكين " أبو طاهر المزدقاني " فعظم شره.. وخاف من أهل دمشق فطلب من طغتكين حصناً يأوى إليه هو وأتباعه، فأشار عليه المزدقاني بتسليمه قلعة "بانياس" الواقعة غربي دمشق، فاستلمها وتجمع فيها أصحابه [4].

ويعتبر ابن الأثير أن تسليمهم هذا الحصن كان كارثة على البلاد، إذ عظم خطب بهرام، وصار يدعو أوباش الناس وطغامهم إلى مذهبهم، فحلت المحنة بظهوره، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين، ولاسيما أهل السنة، إلا أنهم لا يقدرون أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من سلطانهم طغتكين - أولا، ومن شر الإسماعيلية ثانياً [5].

وأفاق طغتكين على شرورهم، لكنه هلك قبل أن يفعل ضدهم شيئاً، وعندما خلفه ابنه تاج الملك بوري - في حكم دمشق، أفرط الوزير المزدقاني في حماية الباطنية، والعطف عليهم ثم تآمر مع الصليبيين، فعرض عليهم أن يسلمهم مدينة دمشق مقابل إعطائه هو والباطنيين مدينة صور بدلاً منها، وأبرمت الاتفاقية، وحدد أحد أيام الجمعة لتنفيذها، بينما يكون المسلمون في المساجد، فتفتح أبواب دمشق للفرنجة بسهولة، ولكن المؤامرة كشفت قبل موعد تنفيذها، فقتل - بوري - وزيره

(1) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 59.
(2) الجهاد والتجديد، محمد الناصر ص 140.
(3) المصدر نفسه ص 140.
(4) المصدر نفسه ص 141.
(5) الكامل في التاريخ نقلاً الجهاد والتجديد ص 141.

الخائن، وأحرق جثته وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف نفس، واستمر أهل دمشق يذبحون فيهم، فأفنوهم تقطيعاً بالسيوف وذبحاً بالخناجر في منتصف رمضان من عام 523هـ[1]. وعند ذلك استنجد داعيتهم إسماعيل العجمي في بانياس بالصليبيين ليحموه وأصحابه، وعرض عليهم مقابل ذلك تسليم بانياس إليهم، وتسلل الباطنية إلى البلدان المجاورة، بعد أن سلموا المدينة لهم[2].

2 ـ اغتيال القادة المسلمين: كان الاغتيال من الأسلحة الرهيبة التي استخدمها الباطنيون لتنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم وظلت حركة الحشاشين الباطنية إسفيناً في قلب المجتمع الإسلامي ساهمت في تمزيقه ونشر الرعب في أرجائه، مما ساهم في احتلال بلاده [3]، فقد كانت حركة الحشاشين مصدراً للانحلال السياسي والاجتماعي طيلة عصر الحروب الصليبية.. وأصبحت عصابة سرية فريدة من نوعها ومدربة على أساليب القتل المنظم... فذهب ضحية إجرام الباطنيين عدد كبير من قادة الجهاد الإسلامي وخيرة رجاله ولم يسلم من بطشهم المخلصون في المجتمع الإسلامي [4] وكان أول ضحايا الاغتيال والغدر الوزير السلجوقي نظام الملك عام 485هـ، كما قتلوا عدداً من الوزراء منهم أبو طالب السميرمي وزير السلطان محمود السلجوقي، ذبحوه ومثلوا به نيفاً وثلاثين جراحة، كما قتلوا وزير السلطان سنجر معين الملك أحمد بن الفضل [5] وقتلوا الوزير فخر الملك ولد نظام الملك، قتلوه وهو صائم يوم عاشوراء جاءه صبي " وهو خارج من داره " يصيح: ذهب المسلمون ولم يبق من يكشف مظلمة ولا يأخذ بيد ملهوف، فاستمع إليه رحمة به، فطعنه الباطني بسكين وقتله[6] واغتالوا عدداً من الولاة والأمراء منهم جناح الدولة حسين صاحب حمص، صهر رضوان صاحب حلب قتلوه عندما نزل من القلعة ليصلي الجمعة في المسجد الكبير، هجم عليه ثلاثة من الحشاشين في لباس الدراويش وقتلوه / 495هـ وكان وقتها يتهيأ لقتال الصليبيين، وينتقد رضوان، لتهاونه في قتالهم، فتآمر على اغتيال زوج أمه[7]، وكان ـ رحمه الله ـ أميراً مجاهداً يباشر الحروب بنفسه[8]، ومن جرائم الحشاشين قتلهم القائد المجاهد الأمير مودود بن النوكتين في ساحة المسجد الأموي عام 507هـ وقد هزم الصليبيين في أكثر من موقعة، وكان ـ رحمه الله ـ صائماً رفض أن يفطر[9]، كما قتلوا والي الموصل، آقسنقر البرسقي عام 520هـ هجموا عليه وهو يصلي الجمعة في جامع الموصل، وثب عليه بضعة عشر نفراً من الفدائيين، وطعنوه بخناجرهم، وقتل رحمه الله بعد أن جرح ثلاثة منهم بيده وكان رجلاً عادلاً عابداً متهجداً قاد الجيوش ضد

(1) الكامل في التاريخ (668/8، 669).
(2) الكامل في التاريخ (669/8).
(3) الجهاد والتجديدص 143.
(4) أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ص183 - 184.
(5) ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانس ص 324.
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 144.
(7) الجهاد والتجديد ص 145.
(8) النجوم الزاهرة (168/5).
(9) البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 145.

الصليبيين مراراً [1]، ولم يتورع الباطنيون عن قتل من تمكنوا من الوصول إليه من خلفاء الدولة العباسية: ومن هؤلاء الخليفة المسترشد، وكان رحمه الله عالماً تقياً فاضلاً بليغاً، عارفاً بالفتوى، هجموا عليه في خيمته واغتالوه ومثلوا به قاتلهم الله وكان ذلك عام 529هـ [2]، كما اغتالوا ولده الخليفة الراشد في أصبهان عام 532هـ ودفن فيها رحمه الله، قتله الباطنية وكانوا في خدمته، وعندما كان يريد القيلولة، ودفن في ظاهر أصفهان [3].

وأما العلماء والفقهاء: فقد اغتالوا عدداً منهم، نذكر على سبيل المثال، أبو القاسم بن إمام الحرمين قتله الباطنية غدراً عام 492هـ، والفقيه أحمد بن الحسين البلخي قتله الباطنية غدراً عام 494هـ والفقيه عبد اللطيف بن الخجندي قتله الباطنية غدراً عام 523هـ والفقيه أبو المحاسن الروياني قتله الباطنية غدراً عام 502هـ والقاضي أبو العلاء مساعد النيسابوري قتله الباطنية بجامع أصبهان 499هـ والقاضي عبيد الله بن علي الخطبي قتله الباطنية بالجامع وهو يؤدي صلاة الجمعة عام 502هـ والقاضي صاعد بن عبد الرحمن أبو العلاء قتله الباطنية يوم عيد الفطر بنيسابور عام 502هـ والقاضي أبو سعد محمد بن نصر الهروي هجم عليه قوم من الباطنية في جامع همذان وقتلوه عام 518هـ والواعظ أبو جعفر بن المشاط كان يدرس للناس في الجامع ولما نزل من على كرسيه وثب عليه باطني وقتله عام 498هـ والواعظ أبو المظفر الخجندي وكان يدرس للناس في الجامع ولما نزل من على كرسيه وثب عليه باطني وقتله[4] وقد قام محمد حامد الناصر بعمل جدول أسماء القادة والعلماء الذين اغتيلوا بيد الباطنية [5] وعلق بعد ذلك بقوله: يتبين لنا ضخامة الدور البشع لتلك الحركات في القضاء على فاعلية الأمة وحيويتها في الصراع الدائر بين المسلمين والغزاة الصليبيين ويتضح لنا من سلسلة الاغتيالات وتوقيتها، ونوع شخصياتها ملاحظات في غاية الأهمية منها:

- أن الذين قتلوا على يد الباطنيين، كانوا يمثلون مراكز القيادة والتوجيه في ميادين السياسية والفكر والجهاد في سبيل الله.

- وأن تصفية هؤلاء كان خدمة متعمدة لخدمة الصليبيين من جهة ولقيادة المذهب الإلحادي الخبيث من جهة أخرى.

- أن كثيراً من ضحايا الاغتيال قتل وهو صائم، أو في وقت تأدية صلاة الجمعة أو خلال مجلس للوعظ الديني والإفتاء في بيوت الله. أن أكثرهم كان يشهد لهم بالصلاح والتقوى والصيام والتهجد والمحافظة على الصلوات مع جماعة المسلمين والإثخان في جيوش الصليبيين [6].

3 - إشاعة الرعب والخوف في المجتمع الإسلامي: لم يقتصر دور الباطنيين على اغتيال

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 145.
(2) الكامل في التاريخ (712/8، 713).
(3) الروضتين لأبي شامة (31/1).
(4) الجهاد والتجديد ص 148، 149.
(5) الجهاد والتجديد ص 148، 149.
(6) المصدر نفسه ص 149، 150.

القادة، ولا على التعاون مع الصليبيين، وإنما كانوا ينشرون الرعب بين الناس بشتى السبل كانوا يقطعون الطريق ويعتدون على سكان القرى المجاورة لهم فيذبحونهم ويستولون على ما لديهم من مال ومتاع، ولم تسلم القوافل المارة بجوار قلاعهم من القتل والنهب، فأصبح الناس لا يأمنون على أنفسهم، ولا على أولادهم وأموالهم وبلغت جرأتهم أنهم كانوا يخطفون الناس من الشوارع والحارات بأغرب الوسائل وكان الرجل إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد، تيقّن أهله من قتله، وقعدوا للعزاء به، وحذر الناس، حتى صاروا لا ينفرد أحدهم في مسيرة وقد أخذ الباطنية مؤذناً، عن طريق جار له باطني، فقام أهله للنياحة عليه، فأصعده الباطنية إلى سطح داره، وأروه أهله كيف يلطمون ويبكون، وهو لا يقدر أن يتكلم خوفاً منهم [1]، واشتد الخوف والرعب من جرائمهم حتى إذا جاء الليل أخفوا جميع ما لديهم من مال ومتاع في أماكن مجهولة غير معروفة خوفاً من هجماتهم وأخذهم إياها، فإذا أصبحوا أخرجوها ثانية [2]، ولم يسلم الحجاج من بطش الباطنيين، ففي عام 498هـ تجمعت قوافل الحجاج مما وراء النهر وخراسان والهند، فوصلوا خوار الري، وهي قرية من أعمال بيهق من نواحي نيسابور، فباغتهم الباطنية وقت السحر، ووضعوا فيهم السيوف، وقتلوهم، وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا شيئاً إلا أخذوه [3]، وفعلوا مثل ذلك عام 552هـ في حجاج خراسان فقتلوهم جميعاً، ولم يبق منهم إلا العدد اليسير، وكان فيهم الأئمة والعلماء والزهاد والصلحاء وفي الصباح طلع على القتلى والجرحى أحد الباطنية، وهو ينادي: يا مسلمون! ذهبت الملاحدة، فمن أراد الماء سقيته، فكان كلما رفع رأسه جريح وتكلم بكلمة أجهز عليه ذلك الباطني وقتله، حتى لم يبق الخبيث منهم أحداً [4]، ونتيجة لهذا الوضع، أصبح الناس غير آمنين، فكأنهم غرباء على بعضهم، فقطعت الأرحام، وتفككت الروابط، وزادت الفرقة بين الناس وازداد الخوف بين الناس، حتى صار كثير من العلماء والكتاب لا يتحدثون عنهم إلا بالتلميح والتورية كي لا تنالهم أيدي الباطنية، من هؤلاء مؤرخ الدولة السلجوقية، العماد الأصفهاني [5]، في كتابه: تاريخ آل سلجوق[6]، فما أشبه الليلة بالبارحة، وها هو التاريخ يعيد نفسه فهل من متعظ [7]؟

4 - فتوى ابن تيمية في الحركات الباطنية: سئل شيخ الإسلام عن الإسماعيلية وما تفرع عنها من حشاشين وقرامطة ومحمرة أو خرمية، وما شابههم فأجاب رحمه الله:

إن هؤلاء وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين وضررهم على أمة محمد ρ أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشييع، وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 151.
(2) الجهاد والتجديد ص 151.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 151.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 151.
(5) أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ص 210.
(6) المصدر نفسه ص 152.
(7) الجهاد والتجديد ص 152.

يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب، ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين، قبل محمد ρ [1].

ثم بين رحمه الله أخطارهم على المسلمين: فقال: إذا كانت لهم مُكنة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مرة الحجاج وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا الحجر الأسود، وبقي عندهم مدة وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى [2]. ثم بين - رحمه الله - تواطؤهم مع الصليبيين فقال: ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية، إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمون للسواحل، وانقهار النصارى، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار [3].

وأشار - رحمه الله - إلى مهادنة العبيديين والفاطميين للصليبيين: وتفريطهم في بيت المقدس فقال: فهؤلاء المحادون لله ورسوله، كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها، فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم، استولوا على القدس الشريف وغيره [4].

وبين تعاونهم مع المغول فقال: ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم فإن منجَّم هولاكو الذي كان وزيرهم وهو " النصير الطوسي" كان وزيراً للحشاشين في آلموت وهو الذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء [5].

وبيّن - رحمه الله - حكم التعامل معهم ، فقال: وأمّا استخدام هؤلاء في ثغور المسلمين، أو حصونهم، أو جندهم، فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم، فإنهم من أغش الناس للمسلمين، ولولاة أمورهم [6] ولا يجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفاظ، ويجب قتل علمائهم وصلحائهم لئلا يضلوا غيرهم، ويحرم النوم معهم في بيوتهم ورفقتهم والمشي معهم، وتشييع جنائزهم [7].

ثامناً: انتشار الفكر الشيعي الرافضي والباطني:

هل كان يتصور أن يصمد المسلمون أمام الصليبيين وقد تفشى الرفض وانتشرت البدع وقامت للمبتدعة دول. فالعبيديون الفاطميون بمصر (297 - 567هـ) والبويهيون وقد تملكوا مقاليد الأمور في بغداد وأهانوا الخلفاء أسوأ إهانة والقرامطة وما فعلوه بالحجيج سنة 317هـ، بل بأهل دمشق سنة 360هـ فقد أوقعوا بأهلها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ومحاولتهم إضعاف الدولة العباسية، وبنو

(1) فتاوى ابن تيمية (149/35).
(2) المصدر نفسه ص (150/35).
(3) فتاوى ابن تيمية (151/35).
(4) المصدر نفسه (151/35 - 152).
(5) المصدر نفسه (151/35 - 152).
(6) الفتاوى (155/35 - 162).
(7) المصدر نفسه (155/35 - 162).

حمدان (317 - 394هـ) بحلب، والأسديون في الحلة (403 - 545هـ) لم يكتفوا بإماراتهم بل شاركوا في أحداث الدولة العباسية من إثارة الفتن على الخليفة، فهذا دبيس أميرهم يرغم على الجلاء عن الحلة فيذهب إلى الشام ويساعد الروم في حصار حلب على شرط أن يتملكها بعد الانتصار على المسلمين، ولكن الحملة تفشل ويعود دبيس إلى الحلة فيقُتل من قبِل السلطان مسعود السلجوقي ولقد تعاون الأسديون مع أرسلان البساسيري الداعي إلى طاعة العبيديين في مصر، فالأسديون لتشيعهم ساعدوا هذا المارق، كما ساعدوا الروم ضد المسلمين[1] فانتشار الفكر الشيعي الرافضي والباطني كان من العوامل التي ساعدت على احتلال الصليبيين لبلاد الشام في الحملة الصليبية الأولى.

تاسعاً: تدهور الحياة الاقتصادية قبل الغزو الصليبي:

تجمعت الأموال في يد حفنة قليلة لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً وتركوا البلاد قاعاً صفصفاً يعانون شظف العيش بدون تأنيب ضمير أو حس [2]، ولعلنا نستطيع إيجاد أبرز مظاهر هذا الخراب الاقتصادي وما تبعه من مفاسد فيما يلي:

- **الإسراف والتبذير عند علية القوم،** إذ أصبح تكديس الأموال عندهم أمراً شائعاً، والنهب من أموال الدولة أمراً عادياً وإليك بعض الأمثلة.

- **وجد في قصور العاضد** آخر خلفاء الفاطميين الحواصل والأمتعة والملابس والمفارش شيء باهر، ومن ذلك سبعمائة يتيمة من الجواهر، عدا الزمرد والياقوت، واستمر بيع محتويات القصر نحوا من عشر سنين [3].

- **والوزير الفاطمي بدر الجمالي كان قد خلف ثروة وجدت بعد وفاته منها:** ستمائة ألف ألف دينار عينا، ومائتا وخمسون إردباً دراهم، وخمسة وسبعون ألف ثوب أطلسي، وثلاثون راحلة أحقاب ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار [4]. ولما قتل ولده الأفضل وزير الفاطمية بعد أبيه بدر الجمالي، عام 515هـ نُقل من أمواله - بأمر الخليفة – ما لا يعلمه إلا الله تعالى، ووجد من الأعلاق النفسية والأشياء الغريبة مالاً يوجد مثله [5].

- **ويصف ابن كثير جانباً من حياة أبي نصر أحمد بن مروان الكردي والي بلاد بكر وميافارقين المتوفى (453هـ) فيقول:** ملك هذه البلاد اثنين وخمسين سنة، وكان عنده خمسمائة سرية سوى من يخدمهن، وعنده خمسمائة خادم، وكان عنده من المغنيات شيء كثير، كل واحدة مشتراها بخمسة آلاف دينار، وكان يحضر مجلسه من آلات اللهو والأواني ما يساوي مائتي ألف دينار [6].

---

(1) واقدساه (357/1).
(2) الجهاد والتجديد ص 71.
(3) البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 71.
(4) وفيات الأعيان (160/2 - 162.
(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 72.
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 72.

- ويصف كذلك جهاز زواج ابنة السلطان ملكشاه عام 480هـ فيقول: في المحرم من هذا العام نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الروحي، غالبها أوان الذهب والفضة، وعلى أربعة وسبعين بغلة مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة، وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة، فيها أنواع من الجواهر والحلي[1].

- وقلد الجند والأمراء والوزراء: في الجشع والنهب فكانوا إذا نشبت فتنة بين السلاطين والملوك أو بين أمرائهم، استغلوا الفرصة ونهبوا المدن والمحلات التجارية والبيوت وتفنن التجار في رفع الأسعار، وخاصة خلال ندرة الأقوات والحاجات وكانت عساكر السلاطين تعيث فساداً في أموال الناس وقرى الفلاحين [2]. هذا وصف موجز لحال الأمراء والوزراء بينما كان الأمر مختلفاً تماماً عند العلماء والأدباء وعامة الناس [3].

- غلاء الأسعار وانتشار المجاعات: كثرت الضرائب على المواطنين وتفننت الدولة في طرق الابتزاز حتى أن الحجاج كانوا يدفعون الكثير من الضرائب للبلد الذي يمرون فيه، كما كان يفعل الفاطميون مع حجاج المغرب في مصر: ومن عجز عن الأداء حبس، وربما فاته الوقوف بعرفة، حتى أسقط السلطان صلاح الدين المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة [4]، وغلت الأسعار بشكل مذهل، فقد روى ابن تغري بردي: أن رجلاً باع داراً بالقاهرة، كان اشتراها قبل ذلك بتسعمائة دينار، بعشرين رطل دقيق، وبيعت البيضة بدينار وذلك عام 428هـ. وعم الوباء والقحط بالعراق والشام كذلك وسائر أرجاء العالم الإسلامي، فكان الناس يأكلون الميتة من الحيوانات وينبشون قبور الموتى من البشر، أما الأغنياء، فكانوا يشترون الرمانة والسفرجلة بدينار، كان ذلك ما بين 484 - 489هـ [5] ويصف ابن كثير الحالة العامة من غلاء الأسعار والمجاعات لعام.

ويصف ابن كثير الحالة العامة من غلاء الأسعار والمجاعات لعام 462هـ ومن غرائب ذلك قوله: بأنه قد نزل الوزير في مصر يوماً عن بغلته، فغفل عنها لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصُلبوا، وما أصبحوا إلا وعظامهم بادية، قد أخذ الناس لحومهم فأكلوها وكان لا يجسر أحد أن يدفن ميتة نهاراً، وإنما يدفنه ليلاً خفية، لئلا ينبش فيؤكل [6].

- اضطراب الأمن وإهمال المصالح العامة: أصبحت الصفة العامة للحياة الاجتماعية الشغب واضطراب حبل الأمن، ولطالما تمرد اللصوص حتى في قلب العاصمة بغداد، ولربما احتلوا بعض وفي غمرة هذه الفوضى انصرف المجتمع إلى الانشغال بقضاياه اليومية الصغيرة، فكانوا

(1) البداية والنهاية (107/16).
(2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 22.
(3) الجهاد والتجديد ص 73.
(4) البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 74.
(5) النجوم الزاهرة (15/5 - 17).
(6) البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 75.

كأهل الجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً [1]، فما أشبه الليلة بالبارحة وكانت الخلافة العبيدية تقدم الهبات لشيوخ القبائل، فإذا انقطعت الأموال، شقت القبائل عصا الطاعة، فتشن الغارات المدمرة على مختلف بلدان الشام ومدنها [2]. يضاف إلى ذلك قطع الطرق على قوافل التجار، ونهب أصحابها وكان التركمان يشتركون في مثل هذه الغارات [3]. وقد أهملت شؤون الزراعة والري، فكثرت الفيضانات، في دجلة والفرات، وأهلكت المرافق العامة، كما أهملت الطرق، وشؤون الأمن، ونهبت المحلات التجارية والبيوتات من قبل اللصوص[4]، وأضف إلى ذلك غارات الأعراب على الريف ونهب المحاصيل، ونتيجة لكل ذلك كانت المجاعات، رغم كثرة الخيرات وخصوبة الأراضي لو وجدت لها حافظاً وسلمت من أيدي العابثين [5].

عاشراً: ضعف الدولة البيزنطية:

تعرضت الدولة البيزنطية في أواخر القرن الخامس الهجري إلى ضعف شديد من قبل السلاجقة، على أقاليمها الأسيوية، كما تعرضت في الوقت ذاته لخطر النورمان وضغطهم على أقاليمها الأوروبية، الأمر الذي أدى إلى ضعفها، وبالتالي تراجعها أمام هذين الضغطين، فتراجعت أمام السلاجقة بعد هزيمتها في معركة ملاذكرد معهم كما تراجعت أمام الذين انتزعوا منها آخر معاقلهم في إيطاليا، ووجهوا أنظارهم نحو الشاطئ الشرقي للبحر الأدرياتي، وخاصة بعد أن انتزعوا صقلية من المسلمين، بل لقد طمعوا في القسطنطينية نفسها، وأخذ النورمان بعد ذلك يحلمون بمواصلة الحرب ضد المسلمين في الشرق، فاتجه فريق من المغامرين منهم نحو الدولة البيزنطية، ودخل البيزنطيون أمام السلاجقة والأناضول واشتبكوا مع البيزنطيين في مواقع كثيرة كما زحف روبرت النورماني على القسطنطينية نفسها لكنه اضطر إلى العودة إلى إيطاليا وترك قواته في بلاد البلقان لابنه بوهيمند الذي صار فيما بعد بطلاً من أبطال الحملة الصليبية الأولى وكان النورمان قد أوقعوا في الأمبراطورية القسطنطينية خسائر كثيرة، حتى كادت تسقط بأيديهم قبل الغزو الصليبي، الأمر الذي فتح لهم طريق الشرق ويسّر زحف الصليبيين في هذه الديار [6].

الحادي عشر: تمرس فرسان الإفرنج على الحرب والإمدادات الأوروبية المستمرة لهم:

ويجب ألا يغرب على البال تمرس فرسان الإفرنج بالحرب في بلادهم؛ فالعصر عصر إقطاع وفروسية ونشأ الفارس مُنذ الصغر على الفروسية ويذكر المؤرخون المعاصرون أنه كانت لفرسان الإفرنج حملة مشهورة كان المسلمون يفسحون لهم الطريق أو يتظاهرون بالانهزام ليتفرق الفرسان

(1) الروضتين لأبي شامة (7/1).
(2) الجهاد والتجديد ص 75.
(3) هكذا ظهر جبل صلاح الدين ص 54.
(4) المصدر نفسه ص 54.
(5) الجهاد والتجديد ص 75.
(6) الوطن العربي والغزو الصليبي ص 30.

وينفصلوا عن المشاة فيتمكن المسلمون من مهاجمتهم من الجوانب والخلف، واعتمد المسلمون في حربهم معهم على القوس والسهام كثيراً، وماذا تفعل السهام بهذه الكتل الحديدية المتحركة، فالفارس والحصان تغطيهما الدروع ومع الزمن اكتسب المسلمون خبرة في حربهم فكان ذلك سبباً من أسباب انتصارهم عليهم ويجب عند ذكر قوة الصليبيين ألا ننسى الإمدادات الأوروبية لهم من سفن وحجاج وفرسان تأتي إليهم كل عام [1].

وبعد هذا، فقد لاحظنا من خلال ما مرَّ ذكره في أحوال الأمّة قبل الهزائم التاريخية الكبرى عند هجوم الصليبيين على العالم الإسلامي أن الفرقة حفرت بين دولـه خنادق بعيدة القاع فأمسى بعضها يتربص بالبعض الآخر، ويتمنى لـه الدمار، فالدولة الفاطمية في الشمال الإفريقي ومصر تغير على الدولة العباسية في العراق والشام والحجاز والدولة الأموية في الأندلس تتمنى البوار للفريقين، كي يؤول إليها الميراث الدسم. والفرقاء المشاكسون محصورون في أحقادهم لا يحسُّون الزحف الصليبي القادم من الغرب، ولا الزحف التتاري القادم من الشرق، أيرضى الإسلام عن هذه الضغائن الخسيسة، أو ينتظر من أصحابها أن يخدموا عقائده وشرائعه[2]؟!، ولاحظنا بأن الخلفاء العباسيين في غاية الضعف والهوان، فقد هرب الخليفة العباسي " القائم بأمر الله " بعدما سقطت بغداد في أيدي الفاطميين واعتقله أحد البدو، ولكن الملك السلجوقي " طغرك بك " استنقذه وردّه إلى عاصمة ملكه، فكأفاه الخليفة على حسن صنيعه ولقّبه ملك المشرق والمغرب، وأطلق يده في إدارة الدولة واضطر إلى تزوجيه بابنته رغم أنفه، ومات الملك السلجوقي فورثه ابن ألب أرسلان ومات الخليفة العباسي وورثه عباسي آخر لقب نفسه " بالمقتدي " وكان شاباً في التاسعة عشر من عمره ولم يكن الشاب الشريف النسب قديراً على الإدارة فتولاها عنه سلجوقي آخر يدعى " ملكشاه " وهو ابن ألب أرسلان الذي توفي بعد حياة عامرة بالجهاد وقد استبدَّ " ملكشاه " بالسلطة - بعد وفاة نظام الملك الوزير الصالح - وازدرى الخليفة، وبلغ من احتقاره لـه أن أمره بترك بغداد، وتضّرع الخليفة إليه أن يمهله شهراً فأبى بعد إلحاح إلاَّ أن يمهله عشرة أيام وحسب، وشاء الله أن يموت " ملكشاه " قبل انقضاء الأجل المضروب وتكتمت زوجته نبأ موته، وذهبت إلى الخليفة المهَّدد طالبة أن يوليَّ ابنه مكانه، وكان الولد لا يبلغ من العمر خمس سنين، ولكنَّ الخليفة المقتدي ولاّه ومنحه لقب ناصر الدين والدنيا: أرأيت هذا الهزل كله؟ إنّها مساخر يحار المرء كيف تقع باسم الإسلام في عاصمة الإسلام!! ومتى يحدث هذا السخف في دَفَّة الحكم؟ يحدث وملوك أوروبا وبابا الفاتيكان ورجال الكنيسة يصرخون بضرورة الثأر من المسلمين والإجهاز على دين محمد ρ، لكن هذه الصيحات لا يبلغ صداها رجال السياسة العليا في بلادنا، إنَّهم ينادون من مكان بعيد، إنَّهم غرقى في شهواتهم الشخصية، ومطامعهم العرقية، لقد فهموا من الإسلام شيئاً واحداً، وأنَّ الوحي الأعلى نزل ليخص أفراد أسرتهم بمكنة ممتازة.

فبعد خمسة قرون أو أقل أو أكثر من شروق الإسلام يرى شاب مسكين من ولد العباس أنّه

(1) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 22.

(2) هموم داعية، محمد الغزالي ص 40.

جدير بقيادة العالم الإسلامي أو يرى نظير لـه من بني أمية أنَّ المسلمين على شاطئ الأطلسي يجب أن يدينوا لـه بالطاعة ألم يكن أجداده الأمجاد عُمُداً في بطحاء مكّة قديماً؟! ولو انتقل الإسلام إلى غرب الأطلسي واعتنقه سكان الأمريكتين فينبغي أن يدخلوا في سلطانه، إن أي عباسي أو فاطمي عديم الكفاية يغنيه هذا الانتساب ليطلب أمراً لا يعرف لـه رأسا من ذنب، والغريب أن صاحب الرسالة قال لابنته فاطمة: "يا فاطمة بنت محمد ρ اعملي لنفسك فإنى لا أغني عنك من الله شيئاً "، ثم جاء بعد ذلك من ينتسب إلى فاطمة بالحق أو الباطل ليتذرع بهذا النسب إلى قيادة المسلمين [1]!!

الحق أن الأجهزة العليا للدولة الإسلامية لحقها عطب مبكر من جراءِ هذه الدعاوي، وأن غلبة التافهين على مناصب الخلافة العباسية أو الفاطمية أصاب الأُمّة الإسلامية بجرح غائر، ما زال ينزف حتى أفقدها الحياة، ومكَّن منها الأعداء، ثم كان سبباً في أن ناساً من أهل الطموح والقدرة رأوا العجز الفاضح لأبناء هذه الأسُر، فنحَّوهم عن السلطة، واحتازوها لأنفسهم ولما كان التطلع والادَّعاء شائعين بين الناس، فقد تهارش على الحكم طامعون كثيرون، وأصبح الاستيلاء على مقاليد الحكم مطلباً ميسوراً لكل من يملك سيف المعز وذهبه ويديه أن يستخفي في هذا الجو ذوو المروءة والشرف والعفاف والتقى، فماذا يصنعون؟ وبأيَّ سلاح يقاتلون؟ لنطِو هذا التعليق السريع، ولنعد أدراجنا إلى بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الأولى، عندما كان أولاد العباس والدولة الفاطمية العبيدية، وأولاد أمية في الأندلس يتنافسون على مقاليد الحكم في العالم الإسلامي. وفي مقدمة جيِّدة كتبها الشيخ علي محمد يوسف، المدَّرس بكلية الشريعة بجامعة قطر، عن ابن الجوزي جاءت هذه العبارات في وصف المسلمين قبيل الهجوم الصليبي: بينما هم في غمرة انقسامهم عن أنفسهم إذ برز عدو يرفع شعار الصليب يريد القضاء عليهم واقتلاع الإسلام من جذوره.

وقد قدمت أُولى الحملات الصليبية سنة 492هـ وقال عنها ابن الجوزي: وردت الأخبار بأنَّ الإفرنج ملكوا أنطاكية ثمّ جاؤوا معرَّة النعمان فحاصروها، وقتلوا ونهبوا وقيل: إنهم قتلوا ببيت المقدس سبعين ألف نفس وكانوا قد خرجوا في ألف ألف [2]. ونقف عند عبارة ابن الجوزي، قيل: إنهم قتلوا سبعين ألفاً!! الأمر عنده، وعند سكَّان بغداد، وفي مركز الخلافة الإسلامية لا يعد وأن يكون إشاعة، إنَّ دار الخلافة آخر من يعلم، وأنّى لها العلم ورجال الدولة في شغل بصيد المتع ونشدان الملّذات والتقاتل على السلطة كأن الحكم مغنماً يستحق المخاطرة أبلغ أُولئك الخلفاء والسلاطين أن عمر بن الخطاب رأثر صرف الخلافة عن ابنه ضناً عليه بمتاعها ومغارمها قائلاً: بحسب آل الخطاب أن يحاسب واحد منهم عن المسلمين، كانت الخلافة أيام الرجل الكبير عبئاً ومغرماً، ثم جاءت أيام الملك العضوض فأصبحت بقرة حلوباً فلما هجم الصليبيون على فلسطين كان التقطع في كيان الأمَّة الكبيرة قد بلغ مداه، ولولا أن مذبحة بيت المقدس طمَّت وعمّت واستحال حصر أنبائها لبقي النائمون نياماً ولم تلبث دولة الخلافة غير قليل حتى دفعت ثمن بلادتها حتى اجتاحها التتار، وجعلوها خبراً كان، ولم تغن عنها الألقاب الخادعة من مسترشد بالله، ومقتف لأمر

(1) هموم داعية ص 41.

(2) هموم داعية ص 42.

الله، ومستنجد بالله، وناصر لدين الله... إلخ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً فكيف بالكذب الصراح؟ والمسلمون إذا لم يصدقوا الله فلا يلومون إلا أنفسهم [1]:

- **أثر الاستبداد على الدين والحياة:** قد يقال: أين جهاد العلماء في مقاومة هذه الفوضى؟ والجواب يقتضينا شيئاً من التفصيل، فإنَّ أصحاب العقول الكبيرة والهمم البعيدة حاربهم الاستبداد السياسي وفضَّ مجامعهم، فضاقت الدائرة التي يعملون فيها، وتضاءل الأثر الذي يُرتقب منهم، والمرء لا يسعه إلاَّ الحزن لمصائر قادة الفكر الديني الذين قتلوا أو أهينوا وحيل بينهم وبين نفع الجماهير، مع غياب هؤلاء انفسح المجال لعارضي الأحاديث الذين يخبطون في السنة الشريفة خبط عشواء ولفقهاء الفروع الذين خدعوا العوام بسلعهم وأوهموهم أنهم يشرحون لباب الدين وشعب الإيمان الكبرى، وهم في الحقيقة يذكرون تفاصيل ثانوية يكثر فيها الأخذ والرد ولا تمس جوهر العقيدة أو الشريعة. إن الأحاديث الشريفة - بعد تمحيص سندها - تحتاج إلى الفقيه الذي يضعها موضعها في الإطار العام للإسلام الحنيف [2].

- **معارك في فقه الفروع:** أما فقهاء الفروع فقد زادو الطين بلَّة وزحموا أوقات الناس بصور من الأحكام تكتنفها التهاويل المزعجة، مع أنها لا تستحق هذا الجهد ولا هذا الوقت ثم أعلنوا حرباً غير شريفة على من يخالفهم في تلك الأحكام الجزئية، روى ابن الجوزي عن الشيخ ابن عقيل، قال: رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم إلا العجز!! لا أقول: العوام، بل العلماء. كانت أيدي بعض الحنابلة مبسوطة في أيام ابن يوسف - الحاكم السابق - فكانوا يتسلطون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع - التي يخالفونهم فيها - حتى لا يمكنَّوهم من الجهر بالقنوت، وهي مسألة اجتهادية - يعنى لا حرج في الاختلاف فيها - فلما جاءت أيام النظام ومات ابن يوسف، وزالت شوكة الحنابلة استطال عليهم أصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظَّلمة فاستعدوا عليهم وآذوا عامتهم بالسعايات، والفقهاء بالنبذ والاتهام بالتجسيم. قال ابن عقيل: فتدبرت أمر الفريقين فإذا هم لم تعمل فيهم آداب العلم، وهل هذه إلا أفعال العسكر؟ يصولون في دولتهم ويلزمون المساجد في بطالتهم [3].

وذكر ابن الجوزي عن أبي نصر القشيري - الواعظ بالنظامية - أنه كان يذم الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم، فرموه بالحجارة حتى وصلت إلى حاجب الباب، وتقاتل القوم مرة بسببه حتى وقع بينهم قتلى وجرحى وحرق ونهب إلى أن أرسل الخليفة من أخمد الفتنة يحدث هذا التمزق في الأمة الإسلامية والعالم الصليبي يحترق شوقاً إلى ضرب الإسلام في عقر داره ومحو أعيانه وآثاره وعلام الخلف والتظالم؟ على قضايا تركها كفعلها، أو فعلها كتركها لا يخدش إيمانا ولا يجرح المروءة وهل في قنوت الفجر إن فعلناه أو تركناه ما يضير؟

إن الُعرْي عن الأخلاق، وإبطان الكره للآخرين، والعجب بالنفس هو الجريمة التي ارتكبها نفر من فقهاء الفروع، غرّتهم بضاعتهم فقدّموها للناس مقرونة بالغلو، ولم يبالوا بما تتركه من فرقة،

(1) هموم داعية ص 43.
(2) المصدر نفسه ص 44.
(3) المصدر نفسه ص 45.

وفساد المتدينين من أهل الكتاب صدر عن هذا المنبع زوّقوا الشعارات وخرّبوا القلوب فقال الله فيهم: {**وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**} [البقرة: 213]. وكانت عقبى الشقاق وعوج الصفوف واضطراب الحكم وحب الرياسة أن اقتحم الصليبيون والتتار حدود الأمَّة المختلفة وفعلوا بها الأفاعيل [1]، ما أشبه الليلة بالبارحة لأني [2] أرى العلل القديمة تتجمع، ونذر العاصفة المدمَّرة يبدو في الأفق البعيد، بل إنَّ الأعداء شرعوا في الهجوم، والأرض الإسلامية تُنتقص من أطرافها، والخطط توضع لضرب القلب بعد قص الأجنحة!!.

نجح الصليبيون في تنصير أربعة أخماس الفلبين ثم اتجهَّوا إلى جزر أندونيسيا يحملون الخطة ذاتها، وقد محو المعالم الإسلامية من " سنغافورة " وهم الآن يبعثرون طلائعهم في شرق وجنوب آسيا، والكاثوليكية تسعي وترى ضرورة إزالة الإسلام من إفريقية وبابا الفاتيكان يتنقل بين أقطار شتى ليطمئن إلى نجاح الخطَّة المرسومة ويزيدها ضراوة!! كيف لا يقشعر جلد المؤمن وهو يطالع هذه الأنباء؟ كيف يطيب لـه منام أو طعام [3]؟ وموازيا للغزو الصليبي التنصيري الجديد، التغلغل الباطني في إفريقيا وآسيا والجاليات المسلمة في أوروبا وكندا وأمريكا وتواصلهم مع الأقليات في البلدان الإسلامية، فالمشاريع الغربية الصليبية والباطنية المفسدة تنخر في هذه الأمة العظيمة، والمسلمون في العالم أجمع ينتظرون من علمائهم ومفكريهم بلورة مشروع إسلامي عقائدي سياسي على أصول الإسلام الصحيح للوقوف أمام هذين الخطرين العظيمين.

وها هي الأمَّة الإسلامية أحسَّست الخطر المحدق وهبّت لتحيا، وعلائم الصحو تنتشر بسرعة مع اقتراب الفزع واكفهرار الجو وإني لمؤمِّل الخير من وراء هذا الصحو الشامل، بيد أني أحُذر من الأمراض القديمة، من فساد السياسة بالفرقة، وفساد الثقافة بالجهل والهوى ومن الناحية العلمية يجب أن نتعاون في المتفق عليه، ونتسامح في المختلف فيه، ونتساند صفاً واحداً في مواجهة الهجمة الجديدة على ديننا وأرضنا حتى نردها على أعقابها وعلى أهل المسؤولية الإسراع في جمع القوى، وسد الثغرات وحشد كل شيء لاستنقاذ وجودنا المهَّدد، إنّ أي امرئ يشغل المسلمين بغير ذلك إمَّا منافق يمالئ العدو ويعينه على هزيمتنا، وإمَّا أحمق يمثل دور الصديق الجاهل، ويخذل أمُتَّه من حيث لا يدري وكلا الشخصين ينبغي الحذر منه وتنبيه الأمَّة إلى شرّه [4].

ولا بد من الالتزام بعوامل النهوض والأخذ بأسباب النصر والتي منها، صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وتحكيم شرع الله في الدولة ووجود القيادة الربانية التي تنظر بنور الله، وقدرتها في التعامل مع سنن الله في تربية الأمم، وبناء الدول وسقوطها، ومعرفة علل المجتمعات، وأطوار الأمم، وأسرار التاريخ، ومخططات الأعداء من الصليبيين والملاحدة والفرق الباطنية، والمبتدعة وإعطاء كل عامل حقه الطبيعي في التعامل معه، فقضايا فقه النهوض والمشاريع النهضوية البعيدة المدى

(1) هموم داعية ص 46.
(2) المصدر نفسه ص 46.
(3) المصدر نفسه ص 47.
(4) هموم داعية ص 47.

متداخلة متشابكة لا يستطيع استيعابها إلا من فهم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ρ وارتبط بالفقه الراشدي المحفوظ عن سلفنا العظيم فعلم معالمه وخصائصه وأسباب وجوده وعوامل زواله، واستفاد من التاريخ الإسلامي وتجارب النهوض، فأيقن بأن هذه الأمة ما فقدت الصدارة قط وهي وفيه لربها ونبيها ρ وعلم بأن الهزائم العسكرية عرض يزول، أما الهزائم الثقافية فجرح مميت والثقافة الصحيحة تبني الإنسان المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة، على قواعدها المتينة من كتاب الله وسنة رسوله، وهدى الخلفاء الراشدين ومن سار على نهجهم، وعبقرية البناء الحضاري الصحيح هي التي أبقت صرح الإسلام إلى يومنا هذا بعد توفيق الله وحفظه.

- **دروس بالغة وعبر مفيدة:** لماذا الحديث عن مآسينا في التاريخ وعن هذه الذكريات الفظيعة الآن؟ لأنّ التاريخ يعيد نفسه، والهجوم على الأرض الإسلامية يتجدَّد في هذا العصر، فالمطلوب منّا - طال الزمان أو قصر - أن نرتد عن ديننا وأن نتنازل عن بلادنا وأحوال المسلمين صورة قريبة الملامح من صورتهم قبل الهجوم الصليبي الأوّل، والفجوات الواقعة بين شتَّى الحكومات هي، وكذلك البعد عن تعاليم الدين، واتخاذ القرآن مهجوراً ونسيان محمد وسيرته وسنته والسؤال الذي يبحث عن إجابة ماذا كان موقف الفقهاء من الحكام الذين جلبوا هذه الهزائم وأحلُّوا قومهم؟ لا أعنى محاكمة ناس ماتوا، وانتقلوا إلى دار أخرى يلقون فيها جزاءهم، إنما أعني: كيف بلي المسلمون بأولئك الرؤساء؟ كيف وصلوا إلى مناصبهم؟ هل ناقش الفقهاء الطرق التي وصلوا بها إلى الحكم؟ هل كانت هناك أجهزة تشير عليهم وتضبط أعمالهم؟ وإذا فقدت الدولة هذه الأجهزة فهل اقترح وجودها وضمن بقاءها؟ هناك حكَّام ارتدوا بتعاونهم مع الصليبيين، فهل أعلن ارتدادهم؟ وكيف تمر خيانة عظمى بهذه السهولة؟ وهناك حكَّام، أضعفوا الجبهة الداخلية بمظالمهم ومآثمهم فكيف تركوا يمهدون لسقوط البلاد بين أيدي أعدائها؟ إن المسلمين الذين جاء في وصفهم أنّهم جسد واحد، صعقهم شلل رهيب، فكان كل عضو يقطع ويمزق وبقية الجسد لا يدري أولا يحس، كيف حدث هذا؟ ومن المسؤول؟ ترى ماذا يشغل فقهاؤنا ومفكرينا إذا كانت حياة الدين كله في مهب العواصف؟ ما هي القضايا الأهم التي تشد انتباههم ويبدؤون فيها ويعيدون؟ وإذا كان المسلمون حملة دعوة عالميَّة، فهل درسوا العالم حولهم وعرفوا ما يسوده من ملل ونحل؟ وهل عرفوا العدو والصَّديق؟ وإذا قيل لهم - في كتابهم عن المتربصين بهم: {**وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**} [البقرة: 217]. فهل فتحوا عيونهم على مكامن الخطر واتَّخذوا أسباب الحيطة؟ كيف بوغتوا بالهجوم الصليبي؟ وبعدما بوغتوا به، كيف تقاعسوا عن ردَّه؟ ماهي الملذات وأنواع الترف التي فتنتهم عن دينهم؟ وهل جفَّت منابعها أم بقيت تجعل الحكم مغنما لا مغرماً؟ وتجعل المناصب العليا مصيدة للحرام لا خدمة للصالح العام، إن فساد نفر من الحكام جرّ على ديننا وأمتنا بلايا عظيمة، إن الخونة الذين مهدوا لسقوط أنطاكية والقدس وغيرهما نسلوا في عصرنا هذا من يمهد لضياع عواصم الإسلام كلها[1] والسكوت لا يجوز، في القارات الخمس تعطي الشعوب الحق في أن تستبقي الحاكم الذي تحب، وتستبعد الحاكم الذي تكره، فما الذي يجعل الأمَّة الإسلامية

(1) هموم داعية ص 54.

تشذ عن هذه القاعدة في أغلب أقطارها وارتقت أجهزة الشورى ارتقاءً عظيماً، وتطورت محاسبة الحكام تطوراً جذريا، فكيف تبغى لحاكم في بلادنا عصمة؟ وكيف يبقى فوق المساءلة؟ وظفر الفرد في أرجاء الدنيا بضمانات لصون دمه وماله وعرضه، ومثوله أمام قضاء عادل حصين إذا بدر منه خطأ، فلماذا يحرم الفرد عندنا مما توفر لغيره من خلق الله؟ وعجبت [1] لمتحدثين في الإسلام يسكتون عن هذه القضايا ويستمرئون الثرثرة في قضايا أخرى لا تمس الحاضر ولا المستقبل وإنما تشغل الفراغ وتقتل الوقت وحسب وكل شيء بأذهانهم إلا قضايا الحرية الفكرية والسياسية وحقوق الأفراد والشعوب مع أن هناك من الحاكمين من يرفض علانية الولاء للإسلام، ومن يطوَّح بنصف أصوله العلمية في التراب، ومن يأبى باستهانة تنفيذ شرائعه، ومن يفخر بتحلله من روابط العقيدة، ومن لا يرى بأساً بتحليل الحرام وتحريم الحلال، ومن لا يبالي بقتل الألوف المؤلفة من الناس توطيداً لسلطاته!! كيف يصح الرضا عن هؤلاء؟ ونريد - والإسلام يتعّرض لمحنة كبرى - أن نحدد المواقف.. إن أعداءنا لم يكتموا من نيَّاتهم شيئاً لأنَّهم لم يروا أمامهم ما يبعث الكتمان أو الحذر. اليهود يقولون: لا قيمة لإسرائيل بدون القدس، ولا قيمة للقدس بدون الهيكل. والمعنى واضح يقولون: خلقت إسرائيل لتبقى.. بل يهددون بنسف هيئة الأمم، إذا اتخذت قراراً يقضي بفصل إسرائيل!! هل بقي غموض حول أوضاعنا بعد تصريحات الفريقين؟

إن المعركة في حقيقتها - ليست حشد بضعة ملايين من اليهود في فلسطين لسبب أو لآخر.. إن المعركة حول الوجود الإسلامي كله وتساؤل القوم هو: لماذا يبقى الإسلام أكثر مما بقي؟ واليهود والنصارى معاً يؤمنون بالعهد القديم، ويرون أن إسرائيل حقيقة دينية لا تقاوم، ولا يجوز تركها، فإذا تحَّدد موقف أعداء الإسلام على ما رسموا هم فما هو موقفنا؟ أنستسلم للفناء، وندع ديننا ورسالتنا للجزارين الجدد أم ماذا [2]؟

- **معالم المنهج للصحوة الإسلامية:** إن العالم الإسلامي لا يبيع دينه، ويؤثر أن يهلك دونه، ولا يغض من موقفه نفر شذاذ من الخونة والجبناء، فقدوا الدين والشرف، ونشدوا العيش على أي حاجة، وبأي ثمن!! ولكن نحسن الوقوف أمام عدو الله وعدوَّنا يجب أن تتوفر لجبهتنا القوى الآتية:

يعود الولاء للإسلام: ويستعلن الانتماء إليه، وفي حرب تعلن علينا باسم الدين لا مجال لإطفائها بالتنكر لديننا [3] ولا بد أن يكون المنهج الذي كان عليه رسول الله وأصحابه وخلفاؤه الراشدون واضحاً لا لبس فيه حتى نخرج من أوحال البدع ومستنقعات الخرافة والأوهام التي تبث في الأمة باسم الإسلام الحبيب العزيز.

إننا نرى الآن في صراع المسلمين مع خصوم الإسلام في بعض دياره يغيب الإسلام، ويضخم البعد الوطني القطري على حسب الدين والعقيدة، وربما يتبين هذا الطرح بعض المحسوبين على

(1) المصدر نفسه ص 54.
(2) هموم داعية ص 55.
(3) المصدر نفسه ص 56.

طلاب العلم أو علمائه، وهذا هو الانتحار، وطريق الدمار بل هو قرة عين الأعداء سواء من الداخل أو الخارج.

- **الولاء الشكلي للإسلام مخادعة محقورة ويجب أن تعود الروح لعقائدنا وشعائرنا وشرائعنا،** والمسلم الذي يستحي من طرح عقيدته ومنهجة وتاريخه بينما يستعلن الباطنيون الجدد ببدعهم وخرافاتهم ولا يستحي اليهودي من عقيدته وشعائره في أرقى العواصم، فهذه هزيمة تحتاج لعلاج عظيم وإلا إذا استمر هذا الحال ببعض المسلمين فيكون نصر الله بعيداً عنهم حتى يأتي من يستعلي بعقيدته ودينه وأخلاق الإسلام وفرائضه وسننه،.. إلخ فسيتحقق نصر الله.

- **يُقصى من ميدان التدين العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدي الساسة المنحرفين،** ويزينون لهم مجونهم ونكوصهم، والعلماء الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية عفا عليها الزمن، أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل، والعلماء الذين يظلمون الإسلام بسوء الفهم، ويرونه في سياسة الحكم والمال ظهيراً للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب إن المسلمين في المشارق والمغارب مهيؤون ليقظة عامة تحمي كيانهم وتستبقي إسلامهم، وهم كارهون أشدَّ الكره؛ لأن تكون الأحوال المعاصرة صورة طبق الأصل لما كان عليه المسلمون قبل الهجوم الصليبي في العصور الوسطى [1].

إن سنن الله تعالى تقتص من المستضعفين المفرطين، كما تقتص من المجرمين المعتدين، إن من عوامل الهدم وإبر التنويم تعمل في هذه الأمة المثخنة من الداخل والخارج حتى يتم الإجهاز الكامل عليها، وقد استطاع الاستعمار الثقافي والفكر الباطني خلق جيل مهزوز الإيمان والفقه، ضعيف الثقة بربه، ومنهجه ودينه وأمته ونفسه، فهو يعطي الدنية في دينه غير مبالٍ بعواقب الأمور، إننا بحاجة إلى يقظة عامة تتناول أوضاعنا كلها حتى نحسن الدفاع عن وجودنا ورسالتنا في عالم لا تسمع فيه إلا أصوات الجبارين من أصحاب المشاريع الشيطانية أو ومن ثم نتمكن من الهجوم على أعدائنا في الداخل والخارج في عقائدهم، وأفكارهم وثقافتهم وهو يتهم.

الثاني عشر: إستراتيجية الحملة الصليبية بعد الاحتلال:

يهمنا هنا أن نشير إلى أن القوى الفرنجية المحتلة والتي قُدر وخُطط لها أن تعيش في بيئة غريبة كان لابد لها من اتباع مجموعة من الإستراتيجيات القابلة للتطوير تهدف في مجملها إلى الإبقاء على صبغة الاحتلال لأمد طويل ومن هذه الإستراتيجيات.

- المحافظة بقدر الإمكان وبمختلف الوسائل على أهم سبب من أسباب نجاحها ألا وهو العمل على إبقاء المحيط الإسلامي مشتتاً بقدر الإمكان؛ لأن ذلك يلغي إمكانية مواجهتها بقوة واحدة مقتدرة، وفي سبيل ذلك عملت بدءاً وباستمرار على احتلال مناطق ذات أهمية إستراتيجية تخدم غرض عزل مناطق القوة الإسلامية عن إمكانية التلاقي والتوحد، وكان سبيلها في ذلك احتلال الُرها لتمنع أو تعيق الاتصال بين العراق وبلاد الشام، كما هو الحال لا حقاً بالسيطرة على مناطق جنوبي بلاد الشام الكرك

(1) هموم داعية ص 56.

والشوبك بهدف إعاقة أو تعطيل الاتصال ما بين مصر وبلاد الشام، هذا على صعيد الجغرافيا الطبيعية أما على صعيد الجغرافيا البشرية، فقد حرصت القوى الصليبية على إدامة الصراع العرقي والمذهبي بين أطراف المحيط الإسلامي وقد اتبعت في ذلك وسائل ترغيب وترهيب، وسياسة تحالف مع قوى ضد أخرى، وقد ساعدها في ذلك إلى حدود معينة العداء ما بين طرفي الصراع الإسلامي الشيعة والسنة، كما ساعدها وجود أقلية مسيحية أمكن لها استغلال بعض قواها للتحالف معها، والتآمر على محيطها العربي.

- ركزت القوى الصليبية في احتلالها على مناطق تؤمن لها الاتصال بمركز إنطلاقها في الغرب الأوروبي، ولذلك ركزت على احتلال سواحل بلاد الشام ضماناً لذلك، وابتعدت قدر الإمكان عن السيطرة على المناطق الداخلية خشية فقدانها لهذه الميزة، وحتى لا تكون محصورة بين قوى إسلامية على افتراض الخوف من توحيد هذه القوى لاحقاً بما يلحق بها ضرراً يؤدي إلى زوالها.

- عملت القوى الصليبية على إيجاد تحالفات مع قوى يمكن أن تمدها بالمساعدة في مراحل مختلفة، إما لعداء هذه القوى للمحيط الإسلامي، رغبة في تحقيق امتيازات اقتصادية، وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة تحالفها بدءاً مع بيزنطة ثم مع المدن الإيطالية أو بعضها، وأخيراً إمكانية التحالف مع القوى المغولية [1] التي كانت فيما بعد أخطر قوة تهدد كيانات المنطقة الإسلامية.

- حرصت القوى الصليبية منُذ بداية تأسيس كياناتها في الشرق الإسلامي على معالجة المشكلة السكانية التي عانت منها نقصاً مقابل الكثافة الإسلامية، وقد تعاملت القوى الصليبية مع هذه المشكلة على صُعد مختلفة وبوسائل متعددة كانت قابلة للتطوير بحسب مقتضيات الأحوال وتطوراتها، ومن ذلك أنها اتبعت سياسة التقتيل والتهجير للمسلمين من مناطق احتلالها، ثم عدلت ذلك في فترات لاحقة ضمن إطار إبقاء العناصر السكانية إذا كان ذلك يخدم مصالحها، كما عملت في نفس السياق على استقطاب مهاجرين إلى مناطق السيطرة الصليبية سواء أكان ذلك من الغرب الأوروبي أو من مناطق أرمينيا أو من نصارى المنطقة الإسلامية، كما أنها لجأت إلى عسكرة المجتمع الصليبي ليكون المجتمع بكافة فئاته وطبقاته قادراً على أداء الخدمة العسكرية لعلاج مشكلة النقص السكاني، ولا أدل على ذلك من أن الجماعات الدينية في المجتمع الصليبي كانت في مراحل من التواجد الصليبي أكثر الفئات تطرفاً في المجال العسكري مثل جماعات الداوية، والاسبتاريه[2].

- ركزت القوى الصليبية على بناء تحصينات عسكرية بخبراتها الذاتية أو تقليداً للخبرات التي وجدتها في المنطقة الإسلامية، وروعي في هذه التحصينات أن تكون أشبه بمحطات إنذار مبكر تكون قادرة على رصد التحركات الإسلامية؛ ولذا روعي في اختيار مواقعها في أن تكون في مقابلة التجمعات الإسلامية الهامة أو على مناطق تهدد مصالح إسلامية كتلك التي أقيمت على مقربة من الطرق التجارية.

(1) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 27.

(2) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 28.

- اعتمدت القوى الصليبية - وبناء على تجارب حروبها مع الطرف الإسلامي - أسلوب الحرب السريعة الخاطفة، هذه الحرب التي لا تحتاج إلى قوات كبيرة وبنفس القدر يُخطط لها أن تختار أهدافاً منتقاة ضمن معايير زمنية نضج المحاصيل مما لا يكلفها قوة عسكرية كبيرة ولكنها بنفس الوقت تكون قادرة - وفق هذا الأسلوب - على إلحاق أذى كبير بالطرف الإسلامي.

- لجأت القوى الصليبية إلى سياسة عقد الهدن وتقديم بعض التنازلات لبعض الأطراف الإسلامية في سبيل التفرغ لقوى إسلامية أخرى وكانت هذه الإستراتيجية ناجحة في فترة التفكك الإسلامي بل وقادها ذلك إلى حد التدخل إلى جانب طرف ضد آخر إما بعرض صليبي على هذا الطرف أو باستدعاء وطلب من بعض الأطراف الإسلامية.

- عملت القوى الصليبية وبمختلف الوسائل على إبقاء روح الحروب الصليبية قوية في الغرب الأوروبي لضمان استمرار الحملات الصليبية واستمرار تقديم المساعدات للكيانات الصليبية في الشرق.

- ركزت القوى الصليبية مع مرور الزمن على تبني إستراتيجية مفادها، أن ضمان وجودها في بلاد الشام يقتضي السيطرة على مصر أو إخراجها من ساحة الصراع بأي شكل من الأشكال وعلى ذلك نجد أن الحملات الصليبية اللاحقة كان جزءاً منها موجهاً بدرجة رئيسة إلى مصر والمتتبع لتاريخ الحركة الصليبية يدرك أن الصليبين حققوا بعض النجاحات في هذا الصدد مستغلين حالات العداء التى كانت تثور بين حكام مصر وبعض مناطق بلاد الشام.

- لجأت بعض الأطراف الصليبية إلى القيام بحملات عسكرية تهدف إلى ضرب المعنويات الإسلامية وتهديد المسلمين في مقدساتهم كما حصل حين غامرت بعض هذه القوى مثل أمير الكرك والشوبك بالتعدي على الأماكن المقدسة في الحجاز، كما لجأت إلى ضرب بعض المقومات الاقتصادية والدينية مثل تهديد طرق التجارة وقوافل الحج وقامت بهذا الدور في مراحل معينة إمارة الكرك والشوبك الصليبية التي كانت تتبع لمملكة بيت المقدس الصليبية.

- لم تغفل الإمارات الصليبية والبابوية الداعمة لها وبعض رجال الدين والمفكرين أن يطوروا إستراتيجية جاءت نتيجة لفشل الإستراتيجيات العسكرية، هذه الإستراتيجية التي تدعو إلى محاولة السيطرة بطرق بعيدة عن الأسلوب العسكري وإنما عن طريق التنصير والدعوة لزيادة عمليات التبشير بالدين المسيحي بين المسلمين، ونحن هنا لا نناقش إمكانية نجاح وفشل هذه الإستراتيجية بقدر ما يهمنا الإشارة إلى أن ذلك كان إحدى البدائل التي سعى الفرنجة لاستخدامها لتحقيق أغراضهم.

- صورت القوى الصليبية نفسها على أنها المدافعة عن المسيحية في بلاد الشرق بغض النظر عن اختلافاتهم المذهبية، حيث صُورت الحركة الصليبية على أنها جاءت لنجدة بيزنطة ضد الخطر الإسلامي السلجوقي، كما صورت زحفها على أراضي المنطقة الإسلامية بأنه يهدف إلى تحرير المسيحيين الشرقيين من نير السيطرة الإسلامية وضمنت من وراء ذلك مساعدات من الطوائف

الأرمنية والسريانية في بدايات سيطرتها على المناطق الإسلامية، ولكن هذه الإستراتيجية المرحلية بدأت تتلاشى مع مرور الزمن [1].

إن هذه الإستراتيجيات وإن كانت عامة تخص جميع الصليبيين، إلا أن ذلك لم يمنع من استخدام إستراتيجيات مرحلية وخاصة بكل إمارة حسب ظروفها مما يعني أن بعض هذه الإمارات ربما اتخذ وتبني سياسة تخالف هذه المبادئ العامة ومن استعراض هذه الإستراتيجيات يبدو لنا أن القوة الإسلامية يقاس نجاحها في مقاومة هذا الخطر الصليبي بمدى تبنيها إستراتيجيات واتباعها وسائل تحد من خطر هذه الاستراتيجيات الصليبية، إما عن طريق تبني استراتيجيات مضادة أو منع الطرف الصليبي من تطبيق استراتيجياته على أرض الواقع وهذا يمكن أن نلمحه من خلال تطورات ردود الفعل الإسلامية على التحدي الصليبي بدءاً من عهد عماد الدين ونور الدين زنكي وصولاً إلى مرحلة صلاح الدين الأيوبي واستكمالاً لما تم في عهد الدولة المملوكية، على أن لا يُفهم من ذلك أن هذا التطور في رد الفعل الإسلامي في العهود الزنكية والأيوبية والمملوكية كان دائماً في الإطار الإيجابي بل إن ما حصل أحياناً هو أن الطرف الإسلامي أو بعض قواه أو أفراده ساعد في نجاح الإستراتيجيات الصليبية [2]وهذا ما سيأتي بيانه في دراساتنا بإذن الله تعالى عن الزنكيين والأيوبين والمماليك.

* * *

(1) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 31.

(2) دراسات في تاريخ الأيوبين والمماليك ص 31.